

تلييسة

أحمد سليم طه

أمين سر الجمعية التاريخية

هل هي مدينة أبزو التي ذكرت في مراسلات تل
العمارنة؟

حكومة قلعة تلييسة تولاها ثلاثة من أعيان آل
الجندي:

الشاعر المبدع الشيخ أمين الجندي قبض عليه
وسجن فيها

تقع مدينة تلييسة إلى الشمال من مدينة حمص على الطريق الدولي الذي
يخترق سورية من الشمال إلى الجنوب، وهو طريق القوافل القديم، يقول عنه
أحد الرحالة:

" إن الطريق بين حمص وحماة خط أبيض شق الحقول الخضراء، وهو
واحد من أقدم الطرق في العالم، تسلكه القوافل منذ خمسة آلاف عام على
الأقل، وكان قد رأى حبالاً طويلاً من الجمال تتحرك ببطء محملة بأكياس
ملونة تتلامع، ويخيل إلى المرء أن فرعون يستجلب الحبوب من حماة ليملأ
عنابره، تحسباً للسنوات السبع العجاف¹."

تبعد تلييسة عن حمص 13 كيلو متراً، وعن الرستن أقل من ذلك،
وكانت المستنقعات تحيط بها من جهاتها الثلاث: الجنوب والغرب والشمال،
وقد ابتعد عنها طريق القوافل إلى جهة الغرب بحدود متني متر متجنباً
المستنقعات الواسعة، وفي بعض السنوات المطيرة كانت تشكل برك مياه
غربي الطريق على شكل بحيرة ضحلة، وهذا يعني أن القوافل كانت تجتاز
طريقاً ضيقاً شبيهاً بالمضيق، مما كان يغري اللصوص وقطاع الطرق
بالإغارة على القوافل تسلب وتنهب، وتفر هاربة، وهذا ما دعا بعضهم إلى
إطلاق تسمية "تل الحرامية" على التل الذي كان خالياً من السكان تماماً.

أما من أين جاءت تسمية " تلييسة"؟ فهناك العديد من الآراء يمكن
استعراض بعضها، على أن الوثائق لا تحدد بشكل قاطع فيما إذا كانت
"تلييسة" كلمة اشتقاقية من فعل " لبس " فتكون هي مصدر المرة الواحدة"
تلييسة العرس" وقد دفع ذلك أحد الشعراء للقول:

¹ -رحلة الدكتور لويس ليري عام 1913م. طبع نيويورك (بين التراب والتراث -د. عدنان البني).

تلبيسة في تمام العرس رائعةً أهدت لزينب فيها كل ما فيها
 في حفلة هاهنا صيغت مباحجها أعطت لقلعة تلبيسة معانيها
 ويعني هذا القول أن ملكة تدمر العظيمة تم زفافها وتلبيستها في القلعة،
 فدعيت هذه القلعة " تلبيسة" ولم أعر على سندٍ يؤيد هذا القول، وربما تكون
 " تلبيسة" اسماً مركباً من كلمتين " تل وبيسة".

1- تلبيسة: تعني مدينة الرهبان، فكلمة تل تعني المدينة، والباء هي
 البيت و"سة" تعني الراهب، فيكون معناها: بيت الراهب، أو مدينة الرهبان.
 2- تلبيسة: مدينة تلبيس الرهبان ثياب الكهنوت لترسيمهم رهباناً في
 أديرتهم. ولم يبق أي دليل يدعم هذين الرأيين لعدم العثور على ما يشير إلى
 استقرار المسيحية بأي شكل في هذه المنطقة.

3- كتب أحد المهتمين بالتسميات السريانية مقالاً في إحدى
 الصحف¹، عن أسماء القرى في محافظة حمص مدّعياً بأنها تعود إلى جذور
 سريانية، وقد أشار إلى أن تلبيسة تعني " تلبيشو" أي: مدينة الأشرار، وقد
 رددت عليه رداً مناسباً نشر في نفس الصحيفة بينت فيه بوضوح خطأ ما
 ذهب إليه².

وفي عام 2001 أصدر هذا المهتم كتاباً عن أسماء القرى في سورية،
 وقد فسر فيه سبب تسمية تلبيسة بهذا الاسم تفسيراً مغايراً لما ادعاه سابقاً حيث
 يقول: " إن تلبيسة تعني البؤساء" وأظن أن المذكور وقع في الخطأ مرتين، فإذا
 كان أصل تسميتها تلبيشو، فهذا يعني: تل المغائر، فنحن لا ننسى لعبة تسمى "
 أم البياش" التي تقوم على صنع حفر صغيرة في الأرض كالمغاور.

4- تلبيسة: تعني وادياً يقع إلى الشرق منها يدعى " بيصة" وقد نسب
 الوادي إلى التل القريب منه، وأطلق عليهما اسماً واحداً مشتركاً " تل بيصة"
 ومع كثرة الاستعمال صحف إلى " تلبيسة"³. وقد يكون الرأي السابق هو
 الأقرب إلى الصواب، فكثيراً ما ورد اسم تلبيسة في وثائق خطية يتم تداولها
 بين الأهالي تحمل اسم " تل بيصة" وقد عاصرت بعض المعمرين الذين كانوا
 يلفظون الاسم " تل بيصة".

ومن المؤكد أن هذه التسميات أطلقت على هذا المكان في زمن متأخر
 نسبياً، وأن هذا المكان ربما كان يحمل اسماً آخر هو الأقدم، كما هي الحال في
 المدن والقرى المجاورة، حيث تبدلت أسماؤها " فالمشرفة" كانت تدعى "

¹ - هو السيد جوزيف أسمر، نشر مقالة في صحيفة العروبة العدد /8083/ تاريخ 1991/10/23.

² - نشر الرد في صحيفة العروبة العدد/8100/ تاريخ 1991/11/12.

³ - الدكتور عماد الدين الموصللي - ربوع محافظة حمص.

قطنة"، و" الرستن" هي أرسوزا، و" تل النبي مند" هي "قادش" و" الزعفرانة" هي "زفرون".

فما هو الاسم الأقدم لتلييسة؟

1- يقول الباحث الفرنسي "رينيه دوسوت" في كتابه " الطبوغرافيا التاريخية السورية، وهو غير مترجم: " يكاد يكون من المؤكد تقريباً أن "أبزو" هي نفسها " تلييسة" حيث اكتشفت فيها الكثير من الآثار الهامة.

2- في التنقيبات الأثرية في مدينة " إيبلا" تم العثور على الأرشيف الملكي لهذه المدينة، وقد تضمن الرقم الموصوف بالرقم/ 1586/ 75/ 75/ت م الذي أشار إليه ألفونصو أركي في رده عن إيبلا والمدن التاريخية بما يلي: " 35 مثقال فضة ومنسوجات، توريد مدينة إيشو، أو إيزو، ويمكن مطابقة هذا الاسم مع اسم مدينة أبزو القريبة من مدينة قادش التي ورد ذكرها في نص المعاهدة المعقودة بين شوي-لي- لوما وشاتوتاترا. حيث ورد فيها اسم مدينة أبزو¹.

3-تحدث الدكتور الباحثة قتيبة الشهابي عن تلييسة بقوله: " تلييسة تل أثري أقيمت عليه بلدة تلييسة الحالية في منطقة الرستن في محافظة حمص، يرقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، تعلوه قلعة لم يبق منها سوى بابها الغربي وجزء من السور، ويُظن بأن مدينة أبزو التاريخية كانت في موضعه"².

4-مدينة تلييسة هي نفسها مدينة أبزو افتراضاً، ولم تثبت هذا التوقع قرائن كتابية أو أثرية أخرى، وقد وقعت هذه المدينة على المعاهدة مع شوي - لي- لوما³.

5- (تقع قرية تلييسة) على بعد 10 كم شمالي مدينة حمص في مركز سورية على تل يُعتقد بأنه يعود إلى الألف التاسع قبل الميلاد، ويظن بعض الأثريين أن تلييسة هي مدينة أبزو.

أسفرت التنقيبات الأثرية العشوائية عن وجود آثار هامة فيها، بينها قطع نقدية وفخارية وزجاجية وتمائيل رخامية تعود إلى أزمنة متعددة، استقر العموريون والحيثيون فيها، وبعدهم جاء الأراميون فاحتلوا مكانهم، كما قدم إليها الفرس في القرن الثالث قبل الميلاد، وبعدهم احتلها الإغريق ثم الرومان، فالبيزنطيون، ويعتقد بأن الكثير من الألفية الرومانية ما زال مطموراً في أراضيها، ويوجد في قلعتها بعض الكهوف، أما تلها الأثري فيبلغ طوله نحو ثلاثمئة متر، وعرضه بحدود منتي متر تقريباً، أما ارتفاعه فيبلغ 30 متراً.

¹ -إيبلا الصخرة البيضاء -قاسم طوير.

² -معجم المواقع الأثرية -مخطوط لم يطبع -الدكتور قتيبة الشهابي.

³ =-الدكتور ماجد الموصلي -ندوة حمص التاريخية الأولى.

وكانت هذه القلعة مركزاً لعائلة آل الجندي التي حكمت المنطقة منذ عام 1735م، وقد بني الجامع الموجود في القلعة عام 1760م، وما تزال أجزاء من السور موجودة، إضافة إلى البوابة الغربية¹.
يقول أحمد وصفي زكريا في رحلته الأثرية عن تلبيسة:

: إن السائح قبل وصوله إلى تلبيسة يرى عن يمينه إلى جانب الطريق آثار خربة تدعى خربة السبيل²، في وسطها حجر رحي كبير هو أحد أمثاله الكثر المنتشرة في رسوم وخرائب هذه الرباع، ولعلها كانت لعصر الزيتون، أو لطحن البرغل. أما تلبيسة فهي قرية كبيرة بينها وبين حمص 12 كم، بيوتها قبب بيضاء، يخالها الغريب لا سيما الأوربيون القادمون إلى الشام حديثاً، معسكر جند، في غربي هذه القرية مستنقع بحاجة إلى تجفيف، وبعض بيوت هذه القرية بني في ظاهر وسفح التل المعروف باسمها، وعلى ما قيل إنها نسبت إلى خربة قديمة تقع شرقي ببادر القرية تدعى "بيصة" صارت بالتحريف "بيسة"، وقد ظن الأثري روسوت هذه القرية هي "abzu" التي وردت في مراسلات تل العمارنة لأن تلبيسة ظهر فيها الكثير من العاديات، وكان فوق هذا التل بناء عسكري ذكره المرادي وسماه قلعة تلبيسة³.

¹ -مجلة الطلبة 1948.

² -هذه الخربة منسوبة إلى السبيل وهو مكان مهيباً لخدمة المسافرين المسلم، حيث يجد فيه مكاناً للوضوء، عبارة عن بئر يهبط إليه بدرج، بقرية مصطبة مرتفعة عن الأرض بمقدار متر تقريباً مرصوفة بالحجارة تقام عليها الصلوات، وكانت هذه السبل تقام على جانب الطريق الأيمن، وبين كل سبيلين مسافة ساعة مشياً على الأقدام.

³ -محمد المرادي في كتابه سلك الدرر في أعيان القرن الثامن عشر، مؤرخاً لعبد الرزاق الجندي حاكم قلعة تلبيسة.



باب القلعة الذي بقي صامداً مع جزء من السور

نرى بعد هذا الاستعراض السريع لبعض أقوال المؤرخين والأثريين أنه من الممكن أن تكون تلبيسة هي مدينة أبزو، وأن ذلك يقع في خانة الاحتمالات، وعلينا لكشف هذا الغموض الانتظار لمعرفة ما سنكشف عنه عمليات التنقيب في التل المصنف منطقة أثرية منذ فترة غير قريبة، ويبدو أن عمليات التنقيب لن تتم في القريب المنظور. وسواء ثبت صحة هذا الافتراض أم لم تثبت فمن المؤكد أن في باطن هذا التل مدينة ما، مدينة قديمة جداً تظهر دلائها كلما اقتطع جزء من التل، فقد تعرض هذا التل إلى اقتطاع أجزاء كبيرة من جهاته الثلاث، فمن الشمال اقتطع جزء كبير منه في عهد الانتداب الفرنسي لردم المستنقعات التي كانت تحيط بالتل، كما اقتطع من جهتيه الشرقية والجنوبية أجزاء كبيرة لصناعة اللبّين المجفف بأشعة الشمس لعمارة القباب، السكن المفضل لدى سكان القرية (التلاويين) وقد كشف هذا الاقتطاع من الجهتين الشمالية والشرقية عن جدران مبنية باللبن المجفف، كما يبدو في الصورة التالية:



صورة تظهر جداراً من اللبن في باطن التل من جهته الشرقية بعد اقتطاع جزء كبير منه وهذا دليل قاطع على أن باطن هذا التل يحتوي على بناء سكنه الإنسان في غابر الزمان، وهناك ما يمكن أن يكون دليلاً على أن تلبيسة هي مدينة أبزو، وهو ما أشارت إليه وثائق إيبلا بأن مدينة أبزو تورد المنسوجات، وقد عثرنا أثناء الحفريات التي قمنا بها لتنفيذ مشروع مياه على عدد من الأشكال الهندسية مصنوعة من الفخار المشوي تشبه هرمياً مقطوع الرأس محفوراً من الأعلى، وهي أشكال ثقيلة نسبياً، عرفها أحد المهتمين بالآثار بأنها ثقالات لشدّ خيطان النسيج إلى الأسفل خلال عملية حياكته.

تلبيسة التاريخ

إن تاريخ تلبيسة القديم يكتنفه الكثير من الغموض، وإذا أمكن إزالة شيء من هذا الغموض في مرحلة من المراحل فإنه يبقى مشوشاً غير واضح، ولم تجر في تلها الضخم أية تنقيبات أثرية منهجية حتى تاريخه، وما تم منها كان عبثاً من المتطفلين على الآثار، وما وجد في تلبيسة من آثار مهمة فإنه اكتشف عن طريق الصدفة، والآثار التي تم اكتشافها حتى الآن في تلبيسة كانت كثيرة ومتنوعة، منها تمثال لفينوس ترفع بيدها صندوقاً، وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشق¹، إضافة إلى مجموعة من الآثار الهامة جداً عثر عليها في

¹ -ربوع محافظة حمص د. عماد الموصللي.

قاعدة مؤذنة جامع المشجر الجنوبي، تحتوي على أكاليل ورقائق وأشرطة من الذهب الخالص، وأختام وقوارير وجرار تعود جميعها إلى العصر الهلنستي، احتفظ بها متحف حمص. وقد عثر على الكثير من الآثار في عهد الانتداب الفرنسي، أهمها ما عرف (بالطاسة الحلومية) وهي مصنوعة من الذهب، عليها رسوم وكتابات، وقد عثر عليها في خربة (حير جَملة)، كما عثر على كنز من العملات الفضية اليونانية تحت طبقة رقيقة من التراب على السطح الغربي للتل، وغيرها الكثير.

إن تلك الآثار تدل على أن تليبيسة كانت تحتل مكانة مرموقة في ماضيها البعيد، يؤكد ذلك أيضاً وقوعها ضمن دائرة لا يزيد نصف قطرها عن عشرة كيلو مترات تضم أمهات المدن الهامة، فبعدها عن قطنة، وأرتوزا، وزفرون، حوالي 10 كم وعن أميسا وقادش وتونيب أقل من 20 كيلو متر.

إن مجاورتها للمدن الهامة التي لعبت دوراً متميزاً في تاريخ سورية القديم يدفع إلى الاعتقاد بأنها لا بد أن تكون قد ساهمت في مثل هذا الدور بشكل أو بآخر، وبالافتراض بأن تليبيسة هي أبزو فإن أرشيف إيبلا- كما أسلفنا- أفاد بأن هذه المدينة كانت شاهدة على المعاهدة بين المصريين ومدينة قادش، وما عدا ذلك فإن الفترة الطويلة بين انتهاء المد الحثي وظهور المسيحية، فترة فقيرة جداً بالمعلومات، إلا أن ذلك لا يعني أن تليبيسة كانت غير موجودة على المسرح التاريخي، وإن الآثار التي عثر عليها في القلعة وما حولها تؤكد عدم انقطاع التسلسل التاريخي للمدينة، فقد تم العثور على آثار آشورية وأرامية وكتابات مبعثرة هنا وهناك، أما الآثار اليونانية فإنها موجودة بكثرة، وتبدو واضحة في شواهد القبور، وكذلك الأمر في الآثار الرومانية فهي ترى في كل مكان تقريباً خاصة الأقبية التي كانت تنقل المياه العذبة إلى العديد من الجهات، كقلعة الرستن، مما يدل على غنى تليبيسة بالمياه في ذلك العصر.

وكانت أراضيها الفسيحة ساحة قتال في المعارك الطاحنة بين الجيوش الزاحفة من الشمال للاستيلاء على حمص، وبين الجيوش المدافعة عنها، فقد انكسرت جيوش زنوبيا في المعركة التي دارت على السهل الممتد بين حمص وتليبيسة عام 272م¹، وكان سهول تليبيسة الفسيحة قد تحولت إلى ساحات حرب كلما تعرضت حمص لخطر قادم من الشمال، فقد تصدى لهجوم التتار كل من الأشرف موسى صاحب حمص، والمنصور صاحب حماة في عام 656هـ الموافق 1260م على سهول تليبيسة، وألقوا بالتتار هزيمة شنيعة

¹ -جولة أثرية- أحمد وصفي زكريا.

فانكسروا وردوا على أعقابهم¹ كما أن هذه السهول كانت مكاناً مفضلاً لدى قادة الجيوش الفتح الإسلامي لإعادة تنظيمها وتأهيلها لإتمام واستكمال عمليات الفتح.

ويمكننا اعتبار غياب أي ذكر لتلبيسة في مطلع العصر الإسلامي إلى خلوها من السكان، ولم تكن هي الوحيدة التي هجرها سكانها، ويقال أن مرد ذلك يعود لتاريخ فتوح الشام، وهذا غير مؤكد، فمنذ نهاية القرن الثالث الهجري فترة ضعف الدولة العباسية، والمنطقة تقع تحت كابوس الكوارث المتلاحقة، بدءاً من غارات القرامطة 290هـ-902م وهجمات البيزنطيين، وحرقت حمص 358هـ-968م ونهبها من قبل نقفور النقاش، ثم حرقها مرة ثانية في نفس العام.

وبعدهم جاء الصليبيون ثم التتار، كوارث تتلوها كوارث، مما أدى إلى خراب عمّ أرباض حمص فهجرها أهلها، وقد ذكر ياقوت الحموي وأبو الغداء أن كثيراً من قرى حمص كانت خراباً بدون تبيان السبب لهذا الخراب ودوامه، وذكر ياقوت الحموي في معجمه العديد من القرى التي ضاع اسمها ورسمها كالعرناس التي ذكرها ابن أبي حصينة حيث قال:

من لي برد شبيبة قضيتها فيها وفي حمص وفي عرناسها

ومنها كفر تكيس-كفر نغد، ويقال أن فيها قبر أبي أمامة

الباهلي الصحابة الشهر² بقطاس-كرماس-جدر-دومين-سماك-غانية، وغيرها..

وكان الخراب شاملاً يقول عنه ياقوت الحموي: آثار الرستن باقية إلى الآن تدل على جلالها؛ وهي الآن خراب ليس فيها ذو مري، وقد أرجع بعضهم سبب الخراب إلى غارات الأعراب على تلك القرى؛ في غياب الحماية من قبل الدولة وعدم توفر الأمان لحياة الناس. وتلبيسة قد أصاب أخواتها من أرباض حمص فقد كانت خالية من السكان تماماً، ومما يؤكد ذلك ما قاله الرحالة الفرنسي جان دوتيفينو، في كتابه "أسفار الشرق" حيث زار سورية عام 1658م، ومما قاله عن الخانات في حمص: إن الخان الذي يبني به المسافرون في حمص على بعد 15 خطوة من البلد ثم يذكر خان آخر في الطريق إلى حماة قرب قرية خربة على تل وهو يعني تلبيسة³.

¹ نفس المصدر السابق.

² هي قرية أبو همامة التي أعاد بناءها الشركس وسكنوها بعد أن جاء بهم السلطان عبد الحميد.

³ بين التراب والتراث- الدكتور عدنان البني-.

إن الخراب قد شمل تلبيسة كما شمل غيرها، وإن وجود نوع من السكن في خان يقع بالقرب منها لخدمة القوافل لا يعني وجود سكن فيها، وإن الخان الذي أشار إليه الرحالة الفرنسي بقي قائماً حتى نهاية القرن العشرين، حينما تم توسيع أوتستراد دمشق-حلب وكان يقع ضمن أملاك مختار تلبيسة الحاج سليمان الزاهر وتوارثه بعده أبناؤه وأحفاده.

كيف عادت الحياة إلى تلبيسة

في عام 1720م عُين إسماعيل باشا العظيم حاكماً على المعرة وحماة، وهو فلاح عربي من إحدى قرى معرة النعمان وأصبح ذا نفوذ واسع، وقد أعطي طوخان بعد تعيينه حاكماً¹.

وقد ازداد نفوذ عائلة العظيم ازدياداً واسعاً بعد تعيين سليمان باشا العظيم والياً على دمشق، فأعطى لهم حماة وحمص ومعرة النعمان ملكخانة، وكان ذلك في عام 1734م. فاصطحب هؤلاء أي: آل العظم معهم أصدقاءهم من آل الجندي الذين استوطنوا معرة النعمان قادمين من إنطاكية، سبق ذلك عندما تسلم ولاية الشام الوزير إسماعيل باشا العظيم عام 1147هـ-1725م، وكان هذا يرتبط بصداقة مع محمد آغا الجندي، فاستدعاه إلى دمشق وعينه محافظاً للحج لفترة زادت على تسع سنوات².

وعندما آلت ولاية الشام إلى سليمان باشا العظيم في عام 1734م، وكان محمد آغا الجندي لا يزال محافظاً للحج، وقد تقدم به العمر فعينه والي الشام متسلماً لمدينة حمص، ورئيساً لحكومة قلعة تلبيسة، وقد قام بحمص بأعمال جليلة أهمها جر مياه الساقية إلى حمص 1738م، كما جر الماء في السنة نفسها إلى الجامع النوري الكبير.

وفي تلبيسة بنى سوراً حول التل، مما دعي لاحقاً بقلعة تلبيسة، وعين الدولة التركية فيها ينكرجية³ بعلايف وتعابين سلطانية، لأجل تأمين طريق الحج. ونسبه محمد آغا الجندي هو محمد بن أحمد بن ياسين بن إبراهيم الشهير بالجندي، القصيري الأصل المعراوي، ونسبته إلى القصير، قرية من نواحي أنطاكية وجددهم الشيخ أحمد القصيري الولي الشهير⁴.

وآل الجندي ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (ﷺ)، وقد ثبت نسبهم بموجب الوثيقة المقدمة إلى المحكمة الشرعية بحمص عام 1327هـ-1909م وكما أسلفنا فقد بنيت قلعة تلبيسة في عام 1734م، عام تولي

¹ الطوخان: ذبلا حصان يعلقان على الراية التي ترفع أمامه في مواكبه الرسمية.

² -في رواية ميخائيل بطرس معماري (الشاعر الرقيق الشيخ أمين الجندي) أن الاستدعاء تم في عام 1145هـ والأصح أن الاستدعاء تم في عام 1147هـ.

³ ينكرجية الانكشارية المشاة.

⁴ -سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر محمد خليل المرادي.

الوزير سليمان باشا العظيم ولاية الشام وفي فترة ولايته الأولى¹ وقد ألقى محمد آغا الجندي من مهمة الحج الشريف وتم تعيينه متسلماً لمدينة حمص، ورئيساً لحكومة قلعة تلييسة، وبقي في منصبه رئيساً لحكومة قلعة تلييسة حتى تاريخ وفاته.

هناك من يرجع بناء قلعة تلييسة لأسباب تتعلق بحفظ الأمن، فغارات الأعراب على المدن واستفحال أمرهم، مستغلين بمقتل الوزير عبد الرحيم العظيم وقائده في معركة مع البدو، فغارات البدو آنذاك كانت تقض مضاجع الحكومة ناشرةً الفوضى وقاطعةً الطرقات، تسلب وتتهب ثم تفر عائدةً إلى مضاربها في الصحراء، حاملةً معها مغانمها، ومن أجل هذا بنيت قلعة تلييسة².

ولعلّ الكثيرين لا يشاطرونه هذا الرأي، بأن القلعة بنيت لصد هجمات البدو كسببٍ وحيد، وإن كانوا لا ينكرون أن القلعة قد حققت هذا الهدف، ويعللون بأن بناء القلعة قد تم بناءً على طلب آل الجندي حيث استقر قسم منهم في تلييسة وتملكوا الأراضي الواسعة المحيطة بالقلعة، وتقدر بالآلاف الدونمات، وهي من أخصب الأراضي التي تجود فيها جميع المزروعات، وكانت لا تزال بكرةً، وإن استثمر تلك الأراضي الواسعة من قبل مزارعين استقدموا من قبل آل الجندي من القرى المحيطة بالمعرة؛ يتطلب إزالة عامل الخوف، والكثير من الأمن والأمان في زمن كانت غارات البدو من أهم أسباب زعزعة الأمن وتعكير صفوه، وإن المزارعين يجب أن يكونوا آمنين على أنفسهم وأموالهم حتى يتمكنوا من حراثة الأراضي وزراعتها لتعطي الغلال الوفيرة، وهو الإنتاج

الأكثر أهمية في الاقتصاد ومن أجل ذلك بنيت قلعة تلييسة³. وبعد وفاة محمد آغا الجندي رئيس حكومة قلعة تلييسة عينت الدولة نجله الأكبر عبد الرزاق الجندي مكانه في رئاسة حكومة قلعة تلييسة. وهو شاعر وأديب وهو أيضاً شقيق خالد آغا الجندي؛ والد الشاعر المبدع الشيخ أمين الجندي.

¹ تولى الوزير باشا العظيم الوزارة مرتين الأولى عام 1734 وحتى عام 1783م والثانية في عام 1742 وحتى عام 1743-المشرق العربي في العهد العثماني-الدكتور عبد الكريم رافق.-

² عبد الفتاح القلعي مجلة المعرفة العددان 298-299.

³ لا يزال لآل الجندي أملاك زراعية تعتبر من أخصب الأراضي وأفضلها كما أن الكثير من الدور السكنية لا تزال مجلة بأسماء بعض أفراد آل الجندي وأن باب قلعة تلييسة يقع ضمن العقار-1144- ومسجل باسم محمد سليمان الجندي وهو أحد أحفاد الشاعر المبدع الشيخ أمين الجندي.

وقد تولى عبد الرزاق الجندي بالإضافة لحكومة قلعة تلبيسة؛ حكومة حمص وحماة لعدة فترات، وذلك لما أبداه من حسن إدارة، وحفظ الأمن في الطرقات وفي سلامة الحج.

وقد امتد نفوذ حكام قلعة تلبيسة ليشمل حمص وحماة شمالاً، وحتى أعماق البادية شرقاً مروراً بالسلمية، يقول محمد غازي حسين آغا: "وكذلك هو الأمر بالنسبة لطريق حمص حماه حلب، فقد عهدت الدولة العثمانية في حمايته إلى أسرة آل الجندي العباسي، وكان مركزهم في قرية تلبيسة، فشيّدوا فيها أسواراً مرتفعة، وحصنوا قلعتها وجهازها بما يلزم لذلك، وامتد نفوذهم إلى أبواب حماه، وقد يمتد في حين آخر إلى معرة النعمان، وكذلك في الجانب الشرقي من طريق حمص حماه حتى يصل إلى عمق البادية الشرقية الشمالية مروراً بالسلمية"¹.

ولد عبد الرزاق الجندي حاكم قلعة تلبيسة الثاني في عام 1150هـ/1737م، وهو رجل سياسة وأدب، في عهده كانت غارات البدو على المدن والقرى تكاد لا تتوقف، فتترك وراءها الكثير من الفواجع؛ حيث تهاجم السكان في عقر دارهم، وفي كل الأوقات تنهب وتسلب وتقتل وتأسر، ثم تفر راجعة إلى الصحراء غير أبهة بهيبة الدولة وسلطتها، (ففي عام 1189هـ/1775م كان يتولى حكومة حمص الوزير عبد الرحيم العظم، فجاءه الأمر بالتوجه إلى جهة عرب الحيارى، وهم عرب الموالي المقيمون شرقي تلبيسة، وفي أطرافها، فتوجه الوزير العظم يرافقه حاكم قلعة تلبيسة عبد الرزاق الجندي، وذهب معهم شردمة من العساكر، فلما بلغوا الأعراب، وكانوا قد علموا بمجيئهم واستعدوا لهم، وقع بينهم الحرب ولم يصدر من طرفهم نصر بالتقدير الإلهي، فاستمر الأمر مقدار نصف ساعة، إلا وأخذتهم العرب وشلحوهم جميعاً²، وبقي عبد الرزاق الجندي وحاكم حمص عبد الرحيم العظم غير مستورة أجسادهم، ثم جاء رجل من العرب وضرب عبد الرزاق الجندي برمح في رقبتة فقتله، ومسكوا حاكم حمص ثم أخذوا عبد الرزاق الجندي محمولاً إلى حمص؛ ودفن في تربة مقام سيدنا خالد بن الوليد، وبعد ذلك ضيقت الدولة وبأمر منها أمواله وكتبه وبيعت حوائجه، ثم بعد ذلك وجهت الدولة التهمة لأولاده، ثم جاؤوا إلى دمشق وفرغوا الحاكمة لأخي عبد الرزاق الجندي، وهو الآن حاكم تلك القلعة³، وهكذا عين خالد آغا الجندي حاكماً لقلعة تلبيسة بعد أبيه وأخيه وهو والد الشاعر الشيخ أمين

¹ -مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية.

² -شلحوهم: لا تعني سلبهم أموالهم وأسلحتهم فقط، وإنما أخذ ألبستهم وتركهم عراة تماماً-رحلة فتح الله الصايغ الحلبي.

³ -سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر -محمد خليل المرادي.

الجندي الذي عاش ردهاً من طفولته في قلعة تلييسة، وكان لا ينقطع عن زيارته لها والإقامة فيها في أثناء حياة والده وبعد وفاته، ويحفظ أهالي تلييسة المعمرون بعض أقواله وأشعاره، ومن ذلك: "كل الناس حسابهم على الله ما عدا أهل تلييسة فإن حسابهم على بعضهم بعضاً" لقد عاش بين ظهرانيهم وخبر عاداتهم وأحوالهم، وعقد صداقات مع بعضهم، فهو مواطن في تلييسة، كما أن أجداده مواطنين في معرة النعمان، وعندما هجا السلطان محمود الثاني عرض حمايته على أهل تلييسة فتلكؤوا في الاستجابة له، فاتجه إلى المعرة موطن أجداده فتلقى نفس الجواب، ولكن حماة منحته الحماية وأجارته، لذلك نراه يمدح آل الغوث الكبير والقطب الخطير عبد القادر الجيلاني -قدس الله سره- ويهجو تلييسة ومعرة النعمان حيث يقول:

يا آل عبد القادر الجيلاني يا أبحر الأفضال والعرفان
أسفاً على ذات العواصم لا على تلييسة ومعرة النعمان
يحم حماة الشام إن رياضه خفاقة الأفياء والأفنان
فالمديح الصريح لحماة ولآل الجيلاني، والهجاء المر لتلييسة ومعرة النعمان.

وعندما هجا الأتراك في عام 1831م بعد الانتصارات الساحقة للجيش المصري على الجيش العثماني ووصوله إلى الأناضول، وتقهر الجيش العثماني بقيادة حسين باشا، قال الشاعر الجندي:

هذا ولما فاض جور الترك في ظلم العباد وصار أمراً مشكلاً
وتظاهرت أعمالهم بمقاصد ومظالم وحوادث لم تقبلها
سلبوا البلاد من العباد فلا ترى في حكمهم ذا نعمة متمولا
والملك ملك الله يؤتیه لمن قد شاء لا بالوراثة والولا
من يخبر الأتراك أن جيوشهم هزمت وأن حسنينهم ولّى إلى

فألقي القبض عليه في تلييسة، وما زالت الغرفة التي أوقف فيها قائمة إلى الآن.

وهكذا نقلت إلينا المصادر أسماء ثلاثة فقط من آل الجندي- كما أسلفنا سابقاً- عينوا حكماً لقلعة تلييسة، وهم محمد آغا الجندي، وولده عبد الرزاق وخالد، وبعد ذلك يلف الغموض هذا المنصب، بحيث لم نعد نسمع عن حكومة قلعة تلييسة شيئاً، ولا نملك ما يثبت أو ينفي استمرار هذه الحكومة أو إلغائها.



مدخل القلعة ويرى إلى الشمال مدخل مخفر الحرس زمن العثمانيين حيث أوقف فيه الشيخ أمين الجندي

وهكذا نرى أن الحياة عادت إلى تلييسة من جديد بعد انتقال آل الجندي إليها مصطحبين معهم بعض المزارعين من قرى المعرة، وهم أجداد التلاويين الحاليين وفدوا إلى تلييسة مشكلين الهجرة الأولى وهي نواة السكان الحاليين في تلييسة.

ومن استعراض دور السكن ضمن سور القلعة وخارجه، وفي سفحه وما احتفظ به المعمرون من أخبار؛ نستطيع أن نتبين ملامح المهاجرين الأوائل وهم بدون استثناء من منطقة المعرة الذين سكنوا داخل السور لأول مرة، ونبيّن أسماء الأسر الأوائل التي سكنت داخل السور حسب التسلسل الأبدي:

بخورتى (الرفاعي)، بدير، بجقة، تعومي، جندي، جمعة لطوف، دقة، رابعة، صباغ، طه، عويجان، عرعور، الشيخ عيسى الهندي، قيسون، المجول، مروان، نعمة، وخارج سور القلعة: بركات، جراد، مدور، كريم، النجار، كريم البستاني، ثم امتد السكن إلى السفوح من الغرب والجنوب، وأول من سكنها الشيخ حمود، ضاهر، كوزو، ضحيك، مصري، زبط، الشيخ فنجان، ناصر، رضوان، وكانت كل أسرة تتمثل بعدد قليل من الأفراد ولها دار سكن واحدة، وأما أول من سكن خارج القلعة تماماً، فهو الضرير الشيخ محمد الجندي، وذلك عام 1253هـ-1819م، وكان قد وفد إلى تلييسة من قرى حلب، فأحببه السكان وبنوا له خارج في السور قبة كالقباب التي يسكنونها، وكان المكان أحد بيادر تلييسة، وكان هذا الشيخ يتبع الطريقة الجنيدية، وهي طريقة ليس

لها أتباع في محافظة حمص، فكان أهل تلبيسة يحضرون معه حلقات الذكر، وفي العيدين كان هذا الشيخ يحمل السنجق، وهي الراية الكبيرة رمز الجنيديّة؛ يطوف بها حول القلعة ويطوف معه الأهالي.

وكان أحد سكان حمص ويدعى خضر عكاش، وكان يعمل نعالاً، وكان في كل عام يقيم في تلبيسة ويقدم خدماته للفلاحين مقابل كسب معيشتة، فأخذ الطريقة الجنيديّة عن الشيخ محمد الجنيدي الضرير، وقد أقنع خضر هذا الشيخ بالنزول إلى حمص بالسيارة (السنجق) لحضور يوم خميس المشايخ،



فما زال يلج عليه حتى قبل النزول يوم الأربعاء

وسار يوم الخميس في سنجقه خلف بني جندل، هذا الشيخ عائش ومات ودفن في قبته

التي القبة التي دفن فيها الشيخ محمد جنيدي ومازال ضريحه يزار للتبرك

بناها له أهالي تلبيسة.

أعقب هذا الشيخ بابنه سليمان الذي أعقب محمداً وأحمد، توفي سليمان بالتل ودفن فيه ومحمد توفي بحمص، وأما أحمد فقد سافر أثناء التجمع ولم يعد، ولا يزال أولادهم موجودين في تلبيسة¹.

وهكذا أخذت تلبيسة تتوسع عمرانياً إلى خارج السور، ثم على السفوح ثم خارج القلعة من جهتيها الشرق والجنوب،

وكان الجميع يؤدون صلواتهم في جامع القلعة؛ الذي بني بالقرب من دار حكومة قلعة تلبيسة عام 1760م، ولا يزال قائماً تقام فيه الصلوات الخمس.

ثم توسع السكن حول دار الشيخ الضرير محمد الجنيدي فيني جامع الساحة، وفي وقت لاحق بني الجامع الشمالي شرقي القلعة في حي آل طه، ثم بني جامع الضواهرة جنوبي القلعة، وعندما تكاثرت الأسر كانت

¹ مسامرة الجليس أخبار يوم الخميس. مخطوط الشيخ.



دار حكومة قلعة تليسة البناء الأقدم في تليسة

تختار لها مكاناً تتجمع فيه، ولم يكن هذا المكان خالصاً لها أبداً، ولا تجد حرجاً في تسرب غيرها للسكن في حيتها، ولا تجد في تليسة حياً يقتصر على أسرة واحدة، وكانت صلاة العيدين والجمعة تقام في جامع القلعة حتى منتصف القرن العشرين، بينما تقام بقية الصلوات في بقية الجوامع. وإذا كانت تليسة تنفرد باتباع الطريقة الجنيديية حيث لا تجد هذه الطريقة إقبالاً في مكان آخر في المحافظة، فقد انتشرت الطريقة النقشبندية في تليسة انتشاراً واسعاً بين العلماء وعامة الناس، وكان الشيخ سليم خلف -رحمه الله تعالى- يزور تليسة بانتظام ليجتمع بأتباعه وتلامذته ومريديه فيها، وهم كثيرون منهم الشيخ عبد الرزاق طه المعروف بالشيخ عبود، والشيخ محمد الزين السراقبي. وكان الشيخ سليم خلف يقول: "عندي تلميذان ونصف" يقصد بذلك

الخليفة الشيخ عبد اللطيف قيسون الشهير بالتلاوي، والشيخ سليم صافي، والمتصوفة الشهيرة التي كانت شمس عصرها، المعروفة بأمر محمد التلاوية، واسمها (فاطمة النعسان)، فمن هي هذه المتصوفة الشهيرة؟



أم محمد التلاوية من أشهر المتصوفات على مستوى القطر كله في عصرها، وقد انتشرت قودها وأناشيدها وقصائدها ومواويلها من دمشق حتى حلب¹.

وقد جمعت بعض هذه الأناشيد جامع القلعة الجامع الأقدم في تلبيسة

الدينية من قبل أحد المهتمين منذ عام 1347هـ/1928م، وطبع هذا المخطوط في عام 1973م وأصبح المرجع الوحيد للمهتمين بالأناشيد الصوفية. ومن أشهر قود هذه المتصوفة القد الذي نظمته من مقام الصّبا ومطلعه:

يا عزولي كف اللوم لم تدري بحالي اليوم
ومنه:

وتشهد بهجة لمعت ومن ذاك الحمى طلعت
وليت الروح لا رجعت وتبقى في حماهم دوم

وكان هذا القد ينشد في حلقات الذكر النقشبندية من شمالي سورية إلى جنوبها، كما كان يغنى في سهرات السمر، ومما يدل على اعتناقها الطريقة النقشبندية قولها من قد أوف:

أه حبك في البرايا محاني ونار عشقك أشعلت جواني
ومنه:

من بحر أشرب الندامي هاموا وصفوا في الدجى أقداما
بالله يا أهل العشق والغرام هل زار طيف النوم لأجفاني
كذا سليم القلب لا تنساه حقاً وصدقاً كنا نهواه
إن كنت تسلك يا أخي مسراه حارب لنفسك تحظّ بالرضوان
يا داخلين الحان يا ساداتي يا شاربين الخمر في الكاسات
فنيث عن رسمي وأيضاً ذاتي لمّا تجلّى الواحد الدّيان

وقد بلغ عدد القود التي جمعها المرحوم رشيد التادفي من نظم أم محمد التلاوية ثمانية قود².

وكانت تلبيسة تشهد الكثير من حلقات الذكر الخاصة بالنساء، وكانت هذه الجلسات تتعقد يوم الخميس ليلة الجمعة، وكانت تدير هذه الحلقات ثلاث نسوة شهيرات، كن إضافة إلى ذلك يقمن بتعليم القرآن وأصول الكتابة والحساب في بيوتهن في أوائل القرن العشرين في وقت تقشت فيه الأمية بين الرجال والنساء، هؤلاء النسوة هن: الشيخة حمدة اليعحي، والشيخة أمينة الشيخ حمود، والشيخة خديجة العبد اللطيف، إضافة إلى الكتاب التي يقوم على

¹ -حمص دراسة وثائقية -محمود عمر السباعي -نعيم الزهراوي.

² -مجموعة قصائد ونشائد نبوية صوفية جامعها رشيد راشد التادفي -مطبوع عام 1973م.

إدارتها الشيوخ لتعليم الصبيان بينهم عبد اللطيف محمد العبد اللطيف، والشيخ سليم عبد الرزاق طه، والشيخ محمد محمد السعيد، والشيخ خالد الشيخ حمود، والشيخ أحمد العبد اللطيف وغيرهم، وكان الصبي يقدم لشيخه إكرامية (تينية وخميسية) ، وهي عبارة عن رغيف من الخبز يجيء به الصبي به يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع.

تلييسة العصر

ليس لدينا أية وثيقة تبين العدد الحقيقي لسكان تلييسة قبل عام 1922 م، تاريخ إجراء الإحصاء الأول للسكان في نيسان، وتمت مقارنته مع السجل العثماني بحضور المخاتير والأئمة، وتم تثبيت نتيجة الإحصاء على النحو التالي:

عدد الذكور: 906

عدد الإناث: 897

المجموع العام: 1803

وقد وقع على نتيجة الإحصاء مختار تلييسة الأول الحاج شحود طه، والمختار الثاني الحاج سليمان الضاهر، وإمام تلييسة الأول: مصطفى الناصر، والإمام الثاني محمد سالم، والأعضاء نعلان مرعي، وجنيد بكور.

ولو أجرينا مقارنة بين عدد سكان تلييسة وغيرها من قرى محافظة حمص، لتبين لنا أن عدد سكان تلييسة هو الأكبر بين جميع التجمعات السكانية الريفية في المحافظة، فعدد سكان الرستن 1352، والغنطو 505، والزعفرانة 250، والقريتين 1570، والقصير 1708، مع الإشارة إلى أن تلييسة قرية، بينما الرستن ناحية، وأن القريتين قائم مقام (منطقة)، كما أن مساحة الأراضي الزراعية التي تعود ملكيتها لمزارعي تلييسة هي الأكبر أيضاً حيث تبلغ مئة فدان.

وقد تعرض سكان تلييسة خلال النصف الأول من القرن الماضي لأوبئة وجوائح سببت خسائر كبيرة في الأرواح، أهمها الملاريا التي كانت تصد أرواح الناس بلا رحمة مما أدى إلى وفيات مرتفعة جداً، وظلت تلييسة على رغم ذلك قرية كبيرة، بل هي الأكبر في المحافظة، ولم تصبح مركز ناحية إلا بعد زيارة الرئيس الخالد حافظ الأسد لها في عام 1971م، حيث وعد مستقبله بإحداث مركز ناحية فيها، وقد وفى بما وعد وصدر القرار رقم 5/ن تاريخ 1972/1/19م عن وزارة الداخلية بإحداث مركز الناحية فيها.

وقد دخل التعليم الرسمي إلى تلييسة منذ عام 1928 عندما تم إحداث مدرسة ابتدائية تستوعب ثلاثة صفوف، ولم تستكمل صفوفها الخمسة إلا في

عام 1951م، وعندما قامت ثورة أذار المجيدة كان فيها مدرستان ابتدائيتان وإعدادية خاصة، أما الآن فيبلغ عدد المدارس في مرحلة التعليم الأساسي في الحلقتين الأولى والثانية بحدود اثنتي عشرة مدرسة، وثلاث مدارس ثانوية عامة اثنتان للإناث، وواحدة للذكور، وثانوية للتعليم المهني. وبينما كان عدد طلاب الصف الخامس الابتدائي في عام 1954م سبعة طلاب، نجح منهم أربعة في الامتحان النهائي، بينما ينوف عدد الطلاب الآن عن عشرة آلاف طالب في تلييسة وحدها، وأول طالب حصل على الشهادة الابتدائية هو عبد الرحمن سليم طه عام 1947م، بينما يبلغ عدد من يحمل شهادة الدكتوراة في جميع الفروع فيها الآن العشرات، منهم عدد من أساتذة الجامعات السورية. وفي تلييسة الآن مركز ثقافي أحدث في عام 1995م، ويقوم بممارسة نشاطه في نشر الثقافة عن طريق المحاضرات، وتنظيم الندوات، واستقبال الدارسين والمهتمين بالمراجع والكتب العلمية، وتقوم وزارة الثقافة ببناء مركز ثقافي ضخم فيها تبلغ كلفته أكثر من 40 مليون ليرة سورية، وسيتم تسلم البناء في نهاية هذا العام.

ويوجد في تلييسة ما يزيد على خمسة عشر مسجداً تزينها مآذن رشيقة، كما أحدث فيها مركز صحي في عام 1959م يقدم خدماته الصحية لجميع المواطنين، وتم إحداث مركز للتوليد الطبيعي فيها مؤخراً يقدم خدماته على مدار اليوم، ويوجد فيها أيضاً فرع لجمعية البر والخدمات الاجتماعية يقدم خدماته الصحية والاجتماعية للمواطنين، وقد حاز على رضا جميع المواطنين.

وقد تم إحداث بلدية في تلييسة منذ عام 1939م، وتعتبر من أقدم البلديات المحدثّة في ريف المحافظة، وقامت في بداية تأسيسها بتقديم الخدمات للمواطنين من رصف الشوارع بالحجارة، وإنارة شوارعها بمصابيح الكاز، وقد شملها قانون الإدارة المحلية، وجرت فيها أول انتخابات في عام 1983م، وفي عام 1987م تم إطلاق اسم مدينة عليها بموجب المرسوم رقم 9 تاريخ 1987/2/19م.

تحتل مدينة تلييسة المرتبة الرابعة في قائمة مدن محافظة حمص يعد تدمر والقصير والرستن، ويزيد عدد سكانها عن 40 ألف نسمة، وتبلغ موازنتها لعام 2006 حوالي 20 مليون ليرة سورية تنفق على مشاريع الطرق والصرف الصحي، ويتألف مجلس المدينة من عشرين عضواً، يرأسهم أحد الأعضاء المشهود له بالكفاءة، ويسهرون جميعاً على راحة المواطنين،

وتأمين الخدمات الضرورية يساعدهم في ذلك خمسة مخاتير موزعين على أحيائها الخمسة.

مصادر ومراجع البحث

- 1- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر -محمد خليل المرادي.
- 2- مسامرة الجليس في أخبار الخميس-سعد الدين الجبلاوي.
- 3- تاريخ الشرق العربي في العهد العثماني-د عبد الكريم رافق.
- 4- جولة أثرية في البلاد الشامية-أحمد وصفي زكريا.
- 5- حمص العصر والتاريخ-أيوب سعدية.
- 6- دراسة وثائقية-محمود السباعي ونعيم الزهراوي
- 7- ربوع محافظة حمص-د. عماد الموصللي
- 8- أسر حمص وأماكن العبادة ج3-نعيم الزهراوي
- 9- بين التراب والتراث-د. عدنان البني
- 10- إبيلا الصخرة البيضاء-تعريب قاسم طوير
- 11- معجم المواقع الأثرية السورية-مخطوط-د. قتيبة الشهابي.
- 12- ندوة حمص التاريخية الأولى-د. ماجد الموصللي.
- 13- مدينة حمص وأوائل المهندسين في ظل الخلافة العثمانية-محمد غازي حسن آغا.
- 14- مجموعة قصائد ونشائد نبوية صوفية-رشيد راشد التادفي.
- 15- النكهة السريانية في أسماء القرى السورية-جوزيف أسمر.
- 16- مجلة المعرفة العددان 298-299 -مقال عبد الفتاح قلعجي.
- 17- مجموعة أعداد من صحيفة العروبة.
- 18- رحلة فتح الله الصايغ الحلبي في القرن التاسع عشر.
- 19- مجلة الطليعة 1948.